

تاريخ هادبا وجوارها

د. عبدالله العيساف

المقدمة

تعد مادبا إحدى ثغور الأردن، فقد كانت وما زالت واحدة من المناطق الجغرافية المهمة في الأردن من الناحية السياسية والاقتصادية والطبيعية منذ العصر القديم إلى العصر الحاضر، وتتبع هذه الأهمية من موقعها المتوسط في الأردن؛ ونتيجة لهذه الأهمية فقد قررت وزارة الثقافة في عام 2012 جعلها عاصمة للثقافة الأردنية.

وتأسيساً على ما سبق، فقد شرفتنا وزارة الثقافة بتكليفنا كتابة تاريخ مدينة مادبا وجوارها، ضمن مشاريعها الثقافية التي تقوم بها؛ ويهدف ربط الشباب بتاريخهم، ومعرفة ماضي أجدادهم العريق، ولغرس الثقة والأمل في نفوس شباب الوطن، بما يخص تاريخ أوطانهم.

ولعل كتابة تاريخ مدينة مادبا وجوارها أمر يحتاج إلى مجلدات يقوم على إنجازها عدد كبير من الباحثين في كل حقل من الحقول المختلفة، خاصة وأن الكتابات المتوفرة لا تعطي صورة واضحة ومتكاملة عن تلك المدينة في الحقبة الزمانية المختصة بالعصر الحديث والمعاصر؛ ولندرة المادة العلمية المتوفرة، بالرغم من وفرتها في الأحقاب الزمانية التي سبقت هذين العصرين، حيث نجد السالنامات العثمانية، وكتب الرحالة، والسجلات الرسمية، والسجلات الشرعية، والوثائق البريطانية، والمذكرات الشخصية وغيرها التي وفّرت الكثير من المعلومات.

وبالرغم من هذا التنوع الثري في المصادر والمراجع إلا أنه ما زال هناك فراغ في بعض الجوانب التي تتناول التاريخ الحديث والمعاصر للمدينة، وهذا الأمر حدا بنا إلى الاعتماد على مجموعة من الروايات التي سبق وأن جمعها الباحث لرواة معاصرين توفاهم الله الآن.

وبالنظر إلى عدم وجود دراسات جادة وموضوعية، تبرز مكانن تاريخ مادبا وجوارها، فقد رأينا أن نسلط الضوء في الفصل الأول على تاريخ مادبا وجوارها عبر العصور التاريخية القديمة والعصر الإسلامي، وتناولنا فيه: معنى اسم مادبا وأصله، مادبا وجوارها في العهد القديم، مادبا وجوارها في الفترة الإسلامية حتى بداية العصر العثماني.

وتطرت الدراسة في الفصل الثاني إلى الحديث عن مادبا وجوارها في العصر العثماني من خلال التعرض إلى القبائل التي سكنت مادبا وجوارها. وعلاقتها بالدولة العثمانية. مع الإشارة إلى التنافس العشائري والقبلي في مادبا وجوارها دون الخوض في جزئياته.

وأما الفصل الثالث، فقد تناولت فيه مادبا وجوارها قبيل عهد الإمارة من خلال التطرق إلى موقف أهالي مادبا وجوارها من الحرب العالمية الأولى، وموقفهم من الثورة العربية الكبرى، وموقفهم من المملكة العربية الفيصلية في سوريا، وموقفهم من الانتداب البريطاني على شرقي الأردن.

وجاء الفصل الرابع ليتحدث عن مادبا وقراها في عهد إمارة شرقي الأردن (1921-1946م) من خلال: موقف أهالي مادبا وقراها من قدوم الأمير عبدالله وتأسيس الإمارة، والغزو الوهابي (الإخوان) لشرقي الأردن، وثورة البلقاء عام 1923م، والأوضاع الاقتصادية والمعيشية لأهالي مادبا في عهد الإمارة، والمعاهدة الأردنية - البريطانية، والمؤتمر الاقتصادي الأول، ومؤتمر الشعب الأردني العام، والإدارة المركزية، ومناصرتهم للقضية الفلسطينية في عهد الإمارة.

وفي الفصل الأخير - الخامس - مادبا وقراها في العهد الملكي 1946-2013م، تحدثت عن جملة من القضايا، وهي: دور أهالي مادبا في الحروب في فلسطين من 1948-1991م، ودورهم في الحياة السياسية والحزبية، والربيع الأردني.

وفي النهاية أرجو أن تكون الدراسة قد قدمت شيئاً يحسب لها في صرح الدراسات التاريخية المختصة بمدينة مادبا، وأبرزت ولو بقدر قليل اسهامات الإنسان المادبي ودوره خلال حقبات مختلفة. مع اعتذاري الشديد لمن لم يسعف المجال لذكرهم في هذه الدراسة بالرغم من الدور المشرف الذي قاموا به والذي لا نستطيع نكرانه؛ وذلك نظراً لضيق الوقت الذي حددته لنا وزارة الثقافة لإعداد هذه الدراسة. فلهم مني تحية إجلال وتقدير عرفانا بما قدموه.

د. عبدالله مطلق العساف

الأحد 3 تشرين الثاني 2013م

الفصل الأول

مادبا وجوارها عبر العصور التاريخية القديمة والإسلامية⁽¹⁾

أولاً: معنى اسم مادبا وأصله

ثانياً: مادبا وجوارها في العهد القديم

ثالثاً: مادبا وجوارها في الفترة الإسلامية (621-1516م)

أولاً: معنى اسم مادبا وأصله:

لقد وجدت بعض الاختلافات في اسم مادبا، وفي أصل تسميتها بهذا الاسم يرجعه بعضهم إلى أنها «كلمة سريانية» مركبة، معناها: مكان طين، أو المياه الهادئة؛ لأن المياه تستقر عادة حول المدينة⁽²⁾.

ويرى آخرون أن اسم مادبا جاء من اللغة الآرامية، وأن كلمة مادبا تتألف من كلمتين هما «ميا» د «أيبا» فالكلمة الأولى ميا تعني المياه والثانية أيبا تعني الفاكهة وحرف الدال للإضافة فيكون معناها مياه الفاكهة⁽³⁾.

(1) يلزم التنويه أن الباحث استعان في إعداد هذا الفصل التمهيدي بالدكتور عيسى محمد الوخيان، فوجب إجمال الشكر له لمساعدته في هذه الدراسة.

(2) سابا، جورج، العزيزي، وروكس، مادبا وضواحيها، ط2، 1990م، ص17، وسيشار له فيما بعد: سابا، مادبا وضواحيها. وانظر: الصلال، عايدة، الآثار والمواقع السياحية في الأردن، ط1، مكتبة الإمام علي، الزرقاء، الأردن، 2003م، ص203، وسيشار له فيما بعد: الصلال، الآثار والمواقع. وانظر أيضاً: العزيزي، روكس بن زائد، مادبا في التاريخ، المجلة الثقافية، ع8، الجامعة الأردنية، 1985، ص154-170، وسيشار له فيما بعد: العزيزي، مادبا.

(3) النحاس، سامي سلامة، تاريخ مادبا الحديث، الدار العربية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1987م، ص8، وسيشار له فيما بعد: النحاس، تاريخ مادبا. وانظر أيضاً: الذيب، منير، معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية، دار العرب، دمشق، سوريا، 2010، ص332، وسيشار له فيما بعد: الذيب، معجم أسماء المدن.

ويرى فريق ثالث أن مادبا كان اسمها في الأصل «ميدبا»، وهو اسم مؤابي يعني مياه الراحة، وأنه ربما كان مأخوذاً من كثرة عدد برك المياه التي كانت تحيط بالمدينة⁽¹⁾. كما ورد ذكرها في الكتاب المقدس بـ «ميدبا»⁽²⁾ التي تعد من أقدم المدن المؤابية⁽³⁾، وقد بقي كما هو في جميع المصادر القديمة التي تذكره دون تحريف، حتى العصر الحديث⁽⁴⁾.

وهذا يعني أن اسم مادبا كان وما يزال الاسم نفسه مع تعديل طفيف في اللفظ، أي أن اسمها لم يتغير عبر مراحل التاريخ مثلما تغيرت أسماء مدن ومواقع أخرى، مما يعطي دلالة واضحة ومهمة على التاريخ العريق لها. ومما تجدر الإشارة إليه أن أهالي المنطقة يلفظون اسم مادبا بألف ممدودة دون الهمزة⁽⁵⁾. وهو اللفظ الذي أصبح متعارفاً عليه في المنطقة.

وقد ورد اسم مادبا وجوارها في العديد من الكتابات التاريخية القديمة والكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والأسفار. وجاء فيها اسم مادبا (ميداب) وحشبون (حسبان)، وذيون (ذيان) وجبل نبو (صياغة أو سياغة) وبعل معون (ماعين) ولب، ومكاور (قلعة مكايروس)، ووادي الوالة وغيرها من المواقع المهمة. إضافة إلى النقوش

(1) قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من الأساتذة، تحرير بطرس عبدالمملك وآخرون، دار الثقافة، ط9، القاهرة، 1994م، ص938، وسيشار له فيما بعد: قاموس الكتاب المقدس. والدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، ج4، دار الهدى، كفر قرع، 2002، ص697. وسيشار إليه فيما بعد: الدباغ، بلادنا فلسطين.

(2) الكتاب المقدس، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، بيروت، 1951م، سفر العدد (21، 30). وسيشار له فيما بعد: الكتاب المقدس، سفر العدد (21، 30). وانظر أيضاً: قاموس الكتاب المقدس، ص938. وسابا، مادبا وضواحيها، ص19.

(3) قاموس الكتاب المقدس، ص938. والدباغ، بلادنا فلسطين، ج4، ص697.

(4) النحاس، تاريخ مادبا، ص8.

(5) العزيمي، مادبا، ص155. ورحال، محمود سالم، المشترك السامي في أساء ومعاني المدن والقرى الأردنية، عمان، الأردن، 2006م، ص141. وحتاملة، محمد عبده، موسوعة الديار الأردنية، ج4، عمان، 2010م، ص54، وسيشار له فيما بعد: حتاملة، الديار الأردنية.

والشواهد الأثرية العديدة⁽¹⁾، التي يستدل منها أن مدينة مادبا كانت إحدى المدن العامرة في الأزمان القديمة، وأن لها تاريخاً يعود إلى فجر الحضارة الأولى في منطقة مؤاب والبلقاء التي حكمتها عدة ممالك⁽²⁾.

وقد جاء أول ذكر لمادبا في الكتابات التاريخية باسم مادبا ابتداءً من جوسوس فلافيوس⁽³⁾، وغيره من المؤرخين الأوائل إلى كلوديوس تيولميوس، وكلما مرّ اسم مادبا أو جاء ذكره في الكتابات التاريخية كانت تأتي بالاسم نفسه⁽⁴⁾، وكذلك ذكرت في الكتاب المقدس بهذا الاسم⁽⁵⁾.

ثانياً: مادبا وجوارها في العهد القديم.

ظهر في بدايات القرن الثالث عشر قبل الميلاد في منطقة شرق الأردن عدد من الممالك والدويلات التي كانت ذات طابع محلي⁽⁶⁾، وهذه الممالك هي: مملكة المؤابيين⁽⁷⁾،

(1) سابا، مادبا وضواحيها، ص 19.

(2) النحاس، تاريخ مادبا، ص 8.

(3) فلافيوس: هو فليفس يوسوفس مؤرخ بيزنطي له العديد من المؤلفات التي تحدثت عن المنطقة، ولمزيد من المعلومات عنه انظر: زايل، فان، المؤابيون، ترجمة وتعريب خير نمر ياسين، الجامعة الأردنية، عمان، 1991، ص 179. وسيشار له فيما بعد: زايل، المؤابيون.

(4) سابا، مادبا وضواحيها، ص 17. وانظر: الصلال: الآثار والمواقع، هامش، ص 203. والعزيري، مادبا، 154-155.

(5) الكتاب المقدس. سفر العدد (21، 30).

(6) كفاي، زيدان عبد الكافي، بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الإسكندر المقدوني، ط 1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2001م، ص 417، وسيشار له فيما بعد: كفاي، بلاد الشام في العصور القديمة.

(7) المؤابيون: وهم من الشعوب السامية وتكلم اللغة السامية، والمؤابيون والعمونيون يرجعون إلى أصل واحد، في حين يرى بعضهم أنهم ينتمون إلى مجموعة من القبائل كانت تسكن الصحراء السورية، ومنها هاجروا جنوباً، وكانوا يرعون الماشية، فسكنوا أرض مؤاب، وأصبحوا فيما بعد يشكلون أغلبية السكان، وقد استوعبوا حضارة البلاد، أي أن شعب مؤاب وعمون هم من الشعوب التي كانت في المنطقة قبل قدوم سيدنا موسى عليه السلام (العبرانيين) للمنطقة بعهود بعيدة. ولمزيد من المعلومات عنهم انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص 927-929. وزايل، المؤابيون، ص 23-26.

والعمونيين⁽¹⁾، والأدوميين⁽²⁾، والأموريين⁽³⁾.

أما عن حدود هذه الممالك المحلية المتوقعة في شرق الأردن، فإن حدود مملكة مؤاب كانت تمتد أراضيها من وادي الموجب شمالاً إلى الحسا جنوباً، بينما امتدت حدود الأدوميين من وادي الحسا شمالاً حتى خليج العقبة جنوباً، أما مملكة العمونيين فكانت تمتد من وادي الزرقاء شمالاً إلى وادي الموجب جنوباً، في حين أن مملكة الأموريين كانت تحاذي مملكة العمونيين⁽⁴⁾.

(1) العمونيون: وهم من الشعوب السامية (العروبيون)، استقروا في الأراضي الواقعة إلى الشمال الشرقي من مؤاب، وبنوا عاصمتهم ربة عمون، وقع بينهم وبين بني إسرائيل معارك عديدة، أهمها أيام شاول وداوود عليه السلام، ومن أشهر ملوكهم حنون، وشويي، ورحويي، وشانيب وغيرهم، لمزيد من المعلومات انظر: أبو طالب، محمود، آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة، ط1، وزارة الثقافة والشباب، 1977م، ص81-82، وسيشار له فيما بعد: أبو طالب، آثار الأردن.

(2) الأدوميون: ورد ذكر أدوم في النقوش الآشورية، ويعود أصل الأدوميين ونسبهم إلى الشعوب السامية (العروبية) وهم من الشعوب المستقرة، كانوا يعملون في الزراعة، والرعي وصناعة النحاس والحديد، تمتد أراضيهم من وادي الحسا شمالاً حتى العقبة، وعاصمة دولتهم بصيرا في الطفيلة، ويعتقد أكثر الباحثين أنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية، ومن آلهتهم بعل، وإيل، وعشتار، وقوس (اله الحرب). ولمزيد من المعلومات انظر: كتاب: ياسين، خير نمر، الأدوميون، تاريخهم، وآثارهم، عمان، 1994م. والمحيسن، زيدون حمد، الحضارة النبطية، مؤسسة حمادة، ط1، اربد، الأردن، 2012م، ص18، وسيشار له فيما بعد: المحيسن، الحضارة النبطية. وانظر أيضاً: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال النشر والتوزيع، ج1، ط1، الرياض، السعودية، 1996م، ص464، وسيشار له فيما بعد: الموسوعة العربية.

(3) الأموريون: عرف الأموريون في السجلات السومرية باسم مارتو، وفي الكتابات الأكادية باسم مورو، وقد عرف الأموريون من خلال النصوص والوثائق التاريخية المكتوبة، أكثر من آثارهم الباقية، وتصفهم الكتابات السومرية بأن الأموري هو الذي ينش الفطر من سفح الجبل، والذي يأكل اللحم النيئ، الذي لا يعرف طيلة حياته بيتاً يملكه، والذي لا قبر له ليدفن فيه بعد موته، وهو كذلك لا يزرع الحبوب. ولمزيد من المعلومات عنهم انظر: كفاي، بلاد الشام في العصور القديمة، ص252-253. وفرزات، محمد حرب، موجز في تاريخ سوريا القديمة، ط11، جامعة دمشق، دمشق، د.ت، ص115.

(4) سابا، مادبا وضواحيها، ص16. والذيب، معجم أسماء المدن، ص332. والنحاس، تاريخ مادبا، ص8. والصلال، الآثار والمواقع، هامش، ص205. وكفاي، بلاد الشام في العصور القديمة، ص419. وهاردنج، لانكستر، آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، ط3، منشورات وزارة السياحة، عمان، 1982، ص34، وسيشار له فيما بعد: هاردنج، آثار الأردن.

يُذكر أن جميع هذه الحدود المقترحة والمتوقعة للممالك المذكورة لم تكن ثابتة، بل كانت تتغير وتتبدل بين الفترة والأخرى، وذلك تبعاً لطبيعة الأحوال السياسية السائدة في هذه الممالك، فتخضع لقوة المملكة وضعف المملكة المجاورة لها، وقد أثبت ذلك العديد من الشواهد الأثرية والأحداث التاريخية⁽¹⁾، وهذا يعني أن منطقة مادبا وجوارها قد تبادلت السيطرة عليها في بعض الأحيان دولٌ غير دولة المؤابيين، كالأموريين والعمونيين.

ومما يدل على أن مسألة التثبيت من الحدود لهذه الممالك غير واضحة ولا يمكن الاعتماد عليها بصورة دقيقة، وخاصة حدود مملكة مؤاب من جهة الشمال، ما أورده كفاي عن ذلك قائلاً: «إن كثيراً من الشواهد الأثرية تشير إلى عدم ثبات حدود مملكة مؤاب خاصة في الجهة الشمالية»، ويدل على ذلك نتائج التنقيبات الأثرية التي جرت في موقع ذيبان⁽²⁾. وهذا يعني أن مادبا وجوارها كانت مؤابية قبل هذا الاستيلاء، وقد استرجعها الملك المؤابي ضمن محاولته التي قام بها لاسترجاع أراضي مملكته من الأموريين في عهد الملك سيحون نفسه الذي احتفظ بحشبون (حسبان) عاصمة مملكته وطرده من ناعور⁽³⁾.

وفي هذه الفترة كان خروج بني إسرائيل (العبرانيين) من مصر في فترة نبوة سيدنا موسى عليه السلام باتجاه الأراضي المقدسة⁽⁴⁾، وعلى الرغم من الخلاف فيمن دخل

(1) كفاي، زيدان عبد الكافي، أصول الحضارات الأولى، دار القوافل، الرياض، السعودية، 2005م، ص 100. وكفاي، بلاد الشام في العصور القديمة، ص 419. وكفاي، زيدان عبد الكافي، تاريخ الأردن وآثاره في العصور القديمة، المقتبس، عمان، 2006، ص 100-102، وسيشار له فيما بعد: كفاي، تاريخ الأردن.

(2) كفاي، بلاد الشام في العصور القديمة، ص 426.

(3) سابا، مادبا وضواحيها، ص 16.

(4) اختلف علماء التفسير في تحديد الأرض المقدسة انظر: الطبري، محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ/922م)، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 1، ص 3، مؤسسة عز الدين أسامة، بيروت، لبنان، 1992م، ص 218. وسيشار له فيما بعد: الطبري، تاريخ. وانظر أيضاً: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية، ج 13، ط 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م. ص 219. وسيشار له فيما بعد: النويري، نهاية الأرب.

الأرض المقدسة والتمهيدات التي سبقت الدخول⁽¹⁾. فبنو إسرائيل قد طلبوا من الملك سيحون الأموري في حشبون أن يسمح لهم بالعبور عبر أراضيه باتجاه أريحا (نحو فلسطين)، ولكنه رفض طلبهم بالعبور، فخاضوا ضده حرباً ضروساً تمكنوا فيها من الانتصار عليه⁽²⁾. ثم استولوا على المدن التابعة للأموريين، وكذلك مدن مملكة مؤاب⁽³⁾، وبعدها قسم يوشع بن نون جميع البلاد التي سيطروا عليها بين أسباط بني إسرائيل⁽⁴⁾.

إلا أن استرجاع المؤابيين لمادبا وجوارها، والاستقلال الذي تمكنوا من إحرازه لم يمهّد حالة الصراع القائمة بينهم وبين بني إسرائيل (العبرانيين)، ف وقعت بين الطرفين عدة معارك، تمكن بعدها الملك عمري (874-853 ق.م) ملك بني إسرائيل في الشمال من

(1) اختلف أهل العلم فيمن دخل الأرض المقدسة بين سيدنا موسى عليه السلام أو قائده يوشع بن نون، انظر: الطبري، ج1، ص219-214. وابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت630هـ) الكامل في التاريخ، ج1، تحقيق خليل شيحا، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2002، ص169-175. وسيشار له فيما بعد: ابن الأثير، الكامل في التاريخ. وانظر أيضاً: النويري، نهاية الأرب، ج13، ص229-234، وج14، ص3-5، وانظر أيضاً: سوسة، أحمد، مفصل تاريخ العرب واليهود في التاريخ، ط5، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1981م، ص565-567. وسيشار له فيما بعد: سوسة، تاريخ العرب واليهود.

(2) الكتاب المقدس، (21: 30). وهريسون، تيموثي، ميكليه بتشريللو، برانوين دانتن، بياترس سانتلورن، مادبا البقايا التراثية، تحرير بتريسيا بقاعي وتوماس ديلي، ترجمة داد بشارة جريس سعيد، بيار البقاعي، المركز الامريكى للأبحاث الشرقية، عمان، الأردن، 1996م، ص1، وسيشار له فيما بعد: هريسون، وآخرون، مادبا البقايا. وانظر أيضاً: الصلال، الآثار والمواقع، ص205. والنحاس، تاريخ مادبا، ص8، ويعلق ترسترام (Tristram) عن صراع سيحون معهم فيقول: "وهو ملك العموريين العربي الأردني، وهو أول من تصدى لبني إسرائيل وكرس نفسه لمحاربتهم"، انظر: ترسترام، رحلات في شرق الأردن، أرض مؤاب، تعريب أحمد عويدي العبادي، الأهلية، عمان، ط1، 2005م، ص137، وسيشار له فيما بعد: ترسترام، رحلات في شرق الأردن.

(3) كفاي، تاريخ الأردن، ص102، وبلاد الشام في العصور القديمة، ص427. والنحاس، تاريخ مادبا، ص8.

(4) الطبري، تاريخ، ج1، ص224. وابن الأثير الكامل في التاريخ، ج1، ص175. والنويري، نهاية الأرب، ج14، ص4.

هزيمة الملك المؤابي كموشيت والسيطرة على عدد من المواقع والمدن المؤابية، والتي كانت من ضمنها مادبا وجوارها⁽¹⁾، ودفعت مؤاب الجزية للملك عمري⁽²⁾، ولكن تبعية مملكة مؤاب، للملك عمري لم تستمر طويلاً، إذ تمكن الملك ميشع بن كموشيت المؤابي (870-840 ق.م) من استعادة قوة مؤاب ورفض دفع الجزية للملك عمري، ولهذا وقعت معارك عديدة بينه وبين بني إسرائيل في عهد الملك عمري ثم ابنه الملك آحاب بن عمري⁽³⁾، كان بسبب رفض ميشع أن تدفع مؤاب الجزية لبني إسرائيل⁽⁴⁾. لذلك قام ملوك بني إسرائيل بالاتحاد ضده، ومحاصرته، ولكن ميشع تمكن من خوض معارك شرسة ضد تجمع بني إسرائيل، ففي حوالي سنة (850 ق.م) تمكن من استرجاع المدن المؤابية ومنها مادبا وجوارها، وطرد المحتلين عنها، وكان لهجومه على منطقة جبل نبو (صياغة)⁽⁵⁾ الأثر الأكبر في استكمال طرد بني إسرائيل عنها، فقد وقعت بين الطرفين معركة استمرت من الصباح حتى المساء انتهت بانتصار ميشع⁽⁶⁾.

-
- (1) زایل، المؤابيون، 51-52. وكفافي، بلاد الشام في العصور القديمة، 428. وتاريخ الأردن، ص 102. والذبي، معجم أسماء المدن، ص 332.
- (2) كفافي، تاريخ الأردن، ص 384.
- (3) آحاب بن عمري ويذكر آجاب أو آخاب
- (4) كفافي، تاريخ الأردن، 384. ويك، اللفتنتن كولونيل فريدرك ج، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، تعريب بهاء الدين طوقان، ط 1، الأهلية، عمان، الأردن، 1998م، ص 22-23، وسيشار له فيما بعد: بيك، تاريخ شرقي الأردن.
- (5) جبل نبو: أحد جبال عباريم في مؤاب مقابل أريحا، ونبو اسم بابلي معناه مذبح، وهو اسم اله العلم والمعرفة عند البابليين، فكان ملوكهم يتبركون به، وحالياً يقع جبل نبو على مرتفع غربي مادبا، وعلى بعد 7 كم، وهو من المواقع التاريخية المهمة، فقد تم العثور على أثار كنيسة عام 1864م، "وفي سنة 1931م. ولمزيد من المعلومات انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص 953. وسالير، كنيسة جبل نبو، المجلة البيبلية، 1934م، ص 120-127، والدباغ، بلادنا فلسطين، ج 4، 701-702. وبيشيريللو، ميشيل، جبل نبو، صياغة، مقام النبي موسى، د.م، د.ت. ص 12، ص 41، 61. وانظر أيضاً:
- Michele Piccillo, Mount Nebo, Custodia Terra Santa, Jerusalem, 2011.
- (6) زایل، المؤابيون، ص 52-57. وحول المعارك انظر: المرجع نفسه، ص 52-57. وهريسون، وآخرون، مادبا البقايا، ص 2. وكفافي، تاريخ الأردن وآثاره، ص 384.

وعلى أثر هذه الانتصارات التي حققها ميشع ضد بني إسرائيل تمكن من توسيع مملكة مؤاب، حتى بلغت ممتي مدينة⁽¹⁾، وقد كان توسعه هذا على حساب الممالك المجاورة، وخلد انتصاراته على بني إسرائيل بنقش على (مسلة) سُميت بحجر ميشع، والتي تعد الآن من أهم الآثار المؤابية، التي عثر عليها في ذيبان⁽²⁾. وكان لهذه الانتصارات آثار كبيرة في مؤاب والأرض الأردنية في تلك الفترة، فقد وفرت للمنطقة التي تقع تحت حكم مملكة مؤاب الرخاء والازدهار والاستقرار ومن ضمنها مادبا وجوارها⁽³⁾.

ولكن بعد وفاة الملك ميشع بجيل واحد تقريباً بدأت قوة مؤاب بالضعف والتراجع، وذلك في حوالي عام 800 ق.م، إذ خضعت مادبا وجوارها لسيطرة الدول الآرامية التي سيطرت على أجزاء كبيرة من المملكة المؤابية، فاصطبغت مادبا وجوارها بالصبغة الآرامية⁽⁴⁾، ثم بعد ذلك بنصف قرن تقريباً تعرضت مؤاب للغزو الآشوري⁽⁵⁾. ووقعت مادبا في هذه الفترة تحت الحكم الآشوريين (732-656 ق.م)⁽⁶⁾ الذين تركوا للمؤابيين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وتركوا لهم إدارة شؤون مملكتهم والتصرف بها، مقابل التزام

(1) زايل، المؤابيون، ص 55.

(2) المرجع نفسه، ص 58. وهريسون، وآخرون، مادبا البقايا، ص 2. وسابا، مادبا وضواحيها، ص 20، وكفافي، بلاد الشام في العصور القديمة، ص 428، وأصول الحضارات، ص 102. وعن أهمية حجر ميشع، وترجمة نص النقش انظر: طوقان، فواز، حولية دائرة الآثار الأردنية، رقم 15، 1970م، ص 19-51. وزايل، المؤابيون، ص 181-183، وقاموس الكتاب المقدس، ص 929. وتوجد الآن في متحف اللوفر بباريس.

(3) زايل، المؤابيون، ص 59.

(4) المرجع نفسه، ص 58-59. والحمارنة، صالح خلف، والعرموطي، عمر، مادبا في أيام زمان، عمان، 2011، ص 17، وسيشار له فيما بعد: الحمارنة، مادبا أيام زمان.

(5) الآشوريون: وهم من الشعوب السامية (العروبيين) استقروا في منطقة مشوبارتو، ثم أسست هذه الجماعة مدينة آشور نسبة إلى الإله آشور، فسموا بالآشوريين، وقد ظهروا على أساس عسكري حربي، وانتهت دولتهم بعد أن سقطت آخر مدينة لهم في نينوى عام 612 ق.م، ولزويد من المعلومات انظر: سوسة، تاريخ العرب واليهود، ص 200-209.

(6) البابليون أو الكلدانيون: وهم من القبائل السامية (العروبية) ويعدهم البعض من الأراميين الذين نزحوا من سوريا إلى جنوب العراق، وقد بلغت دولتهم أوجها في عهد الملك نبوخذ نصر (605-562 ق.م) فحكم 43 سنة. ولزويد من المعلومات انظر: سوسة، تاريخ العرب واليهود، ص 200-210.

مؤاب بدفع الجزية والضرائب والهدايا لهم⁽¹⁾، كغيرها من المدن والممالك في بلاد الشام⁽²⁾، وقد حضيت المدن المؤابية ومادبا وجوارها في تلك الفترة بالرفاهية والازدهار والاستقرار⁽³⁾.

وعندما تغلب البابليون (الكلدانيون) على الآشوريين في العراق، وانتزعوا الحكم منهم عام (612 ق.م) وأصبحت أرض مؤاب من أملاك البابليين توجه الملك نبوخذ نصر (بختنصر)⁽⁴⁾، نحو المنطقة، وأجبر مملكة مؤاب على دفع الجزية له⁽⁵⁾. وفي عام 597 ق.م هاجم نبوخذ نصر حشبون (حسبان) وتعرض أهلها للذبح والقتل والتشريد⁽⁶⁾. وذلك بعد هجومه الذي قام به على القدس وتدميره لها في عام 598 ق.م وهو ما يسمى بالسبي البابلي الأول ثم تبعه السبي البابلي الثاني سنة 586 ق.م⁽⁷⁾، والذي دُمِر فيه الهيكل. وقد تراجعت مؤاب وانحدرت بعد ذلك⁽⁸⁾.

(1) زایل، المؤابيون، ص 65.

(2) سوسة، تاريخ العرب واليهود، ص 222.

(3) زایل، المؤابيون، ص 65. والحمارنة، مادبا أيام زمان، ص 17.

(4) بختنصر أو بخت نصر هكذا ورد اسمه في بعض المصادر الإسلامية، انظر: الطبري، تاريخ، ج 1، ص 271. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 216. والنويري، نهاية الأرب، ج 14، ص 114.

(5) زایل، المؤابيون، ص 68. وهاردنج، آثار الأردن، ص 45. ومخلوف، لويس، الأردن، تاريخ وحضارة وآثار، نشر وكالة التوزيع الأردنية، عمان، 1983م، ص 113، وسيشار له فيما بعد: مخلوف، تاريخ الأردن.

(6) المرجع نفسه، ص 113.

(7) الحمارنة، مادبا في أيام زمان، ص 17. وعن غزو القدس على يد نبوخذ نصر وبني إسرائيل وتقتيلهم وتشريدهم وهدم الهيكل وتدمير القدس انظر: الطبري، تاريخ، ج 1، ص 272-283. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 119-228. والنويري، نهاية الأرب، ج 14، ص 120-128. وسوسة، تاريخ العرب واليهود، ص 210-211.

(8) المراغي، محمود أحمد، اشعيا نبي بني إسرائيل، دار العلوم العربية، ط 1، بيروت، 1992م، ص 165-166، و184-187.

وقد خضعت المنطقة بعد ذلك لغزو الفرس فترة من الزمن، واحتلها بعد ذلك الإسكندر المقدوني في حوالي 332 ق.م، فأدخل في المنطقة بعض مظاهر الحضارة اليونانية⁽¹⁾. وبذلك أصبحت مادبا وجوارها تخضع لحكم أحد أصدقاء الإسكندر المقدوني وقادته، وهو بطليموس بن لاغوس ردياً من الزمن⁽²⁾، وقد استمر ذلك إلى أن جاء الأنباط إليها في القرن الثاني قبل الميلاد⁽³⁾. وقد اتبعوا سياسة التوسع، وتحرير المدن والمواقع التي كان يحكمها اليونان، ففي عهد الملك الحارث الأول (169-120 ق.م) تمكن الأنباط من استرجاع مادبا وجوارها وضمها لمملكته، وفي حوالي عام 160 ق.م أصبحت مادبا إحدى المدن المهمة في دولة الأنباط⁽⁴⁾. فوصفها المؤرخ البيزنطي ستيفانس بـ «مادبا مدينة الأنباط»⁽⁵⁾، وأسند الأنباط إدارة مادبا وجوارها لبني يمري (الأمراي) (بني يعمر)⁽⁶⁾.

وقد ازدهرت مادبا في الفترة البيزنطية خاصة بعد انتشار الديانة النصرانية⁽⁷⁾ في المنطقة⁽⁸⁾. وكانت مادبا ومكايروس (مكاور) وحسبان من أهم المقاطعات العربية في تلك

-
- (1) الكردي، محمد علي، عمان تاريخ وحضارة وآثار المدينة والمحافظه، دار عمار، عمان، 2000م، ص 45. والهروط، شادي علي، مساكن لب التراثية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2007م، ص 12. وعن احتلال الإسكندر المقدوني للبلاد، انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 237-246.
- (2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 245. وانظر أيضاً: غوانمة، يوسف حسن درويش، عمان حضارتها وتاريخها، عمان، 1979م، ص 37، سيشار له فيما بعد: غوانمة، عمان.
- (3) وعن أصل الأنباط وملوكهم انظر: عباس، إحسان، تاريخ دولة الأنباط، ط 1، دار الشروق، عمان، الأردن، 1987م، ص 29-72. والمحيسن، الحضارة النبطية، ص 18-35.
- (4) سابا، مادبا وضواحيها، ص 24. والعزيزي، مادبا، ص 157. والنحاس، تاريخ مادبا، ص 10. والذيب، معجم أسماء المدن والقرى، ص 332.
- (5) العزيزي، مادبا، ص 157.
- (6) المرجع نفسه، ص 157. وسابا، مادبا وضواحيها، ص 24، 25.
- (7) وعن انتشار الديانة النصرانية في مادبا وجوارها، انظر: سابا، مادبا وضواحيها، ص 40-42.
- (8) وعن الكنائس القديمة في مادبا انظر: بترشيللو، ميشيل، مادبا كنائس وفسيفساء، ترجمة ميشيل صباح وجورج سابا، القدس، 1992م. والنحاس، تاريخ مادبا، ص 13-15.

الفترة⁽¹⁾. وعُيِّنَ لمادبا أسقف اسمه قاينواس الثاني في حوالي سنة 451 ميلادي، الذي حضر مجمع خلقدونيا عام 451م⁽²⁾، وقد وجدت العديد من الآثار الكنسية إبان تلك الفترة، ومن أهم هذه الكنائس كنيسة الخارطة، وكنيسة مريم العذراء، وكنيسة الكاهن يوحنا على جبل نبو، ولعل انتشار بناء الكنائس في مادبا في هذه الفترة أعطي دلالة مهمة تدل أن سكانها كانوا بأعداد كبيرة، ساعد ذلك في الرخاء الاقتصادي في مادبا⁽³⁾.

وكانت مدينة مادبا وجوارها في القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين مدينة مزدهرة وغنية، وآهلة بالسكان بدليل المباني الكثيرة المزينة سواء أكانت مباني دينية (كنائس) أو خاصة⁽⁴⁾.

وقد اشتهرت مادبا كثيراً بالفسيفساء حتى سميت بمدينة الفسيفساء، يذكر مانفريدي (Manfredi) أنه حيثما حفر في مادبا عثر على شيء من الفسيفساء، حتى أنه في بعض الأحيان يجد طبقة من الفسيفساء فوق طبقة أخرى أو طبقتين⁽⁵⁾. ومن أهم الآثار الفسيفسائية الموجودة في مادبا على الإطلاق هي الخريطة الفسيفسائية التي يعود تاريخها إلى منتصف القرن السادس الميلادي، وصانعها هو سلمانا المادي، وهي خريطة للأرض المقدسة، وقد عثر عليها في إحدى كنائس مادبا القديمة، وتشتمل على خريطة فلسطين والأردن وقسم من البلاد المجاورة من بلاد النيل وسوريا، وفيها عدد من البنايات المتنوعة، ورسم الجبال والسهول بمختلف الألوان⁽⁶⁾، فكانت في غاية الروعة والجمال،

(1) سابا، مادبا وضواحيها، ص 35، 40.

(2) سابا، مادبا وضواحيها، ص 41. والعزيمي، مادبا، ص 164. والنحاس، تاريخ مادبا، ص 14.

(3) الحمارنة، مادبا أيام زمان، ص 25. والنحاس، تاريخ مادبا، ص 13-14.

(4) سابا، مادبا وضواحيها، ص 53.

(5) المرجع نفسه، ص 60.

(6) وحول الخريطة الفسيفسائية وأهميتها التاريخية والمواقع التي وردت فيها. انظر: سابا، مادبا وضواحيها، ص 69-101. والنحاس، تاريخ مادبا، ص 15-16. والطائي، منى أحمد، المعالم الأثرية في المملكة الأردنية الهاشمية، 2004م، ص 103-104.

وهذا الأمر يدل على أمرين: أولهما: مكانة مادبا لوضع هذه التحفة الفنية الرائعة فيها. ثانيهما: الازدحام السكاني في مادبا⁽¹⁾.

ثالثاً: مادبا وجوارها في الفترة الإسلامية (621 - 1516م).

تمكن المسلمون أثناء حركة الفتوح الإسلامية التي قام بها صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في فترة خلافة عمر بن الخطاب من فتح بلاد الشام، وطرده الاحتلال البيزنطي من أرض العرب بعد معركة اليرموك في عام 15هـ/ 637م، فخضعت الأراضي الأردنية ومنها مادبا وجوارها لحكم المسلمين، الذين تركوا للناس حرية الاعتقاد ولم يجبروا أحداً قط على تغيير دينه، فبقي عدد غير قليل في البداية على الديانة النصرانية، واستمرار بناء الكنائس في الدولة الإسلامية، فقد تم العثور على كنيسة مريم العذراء المرصوفة بالفسيفساء في مادبا، والتي يعود بناؤها إلى عام 43هـ/ 662-663م، من خلافة معاوية بن أبي سفيان⁽²⁾.

وتأسيساً على ما سبق، فإننا نجد إجحافاً في إشارة بعض المؤرخين إلى تسمية مادبا في هذه الفترة بـ «ظلمة التاريخ» و«الصمت الرهيب» . . . و«الاحتضار» وغيرها⁽³⁾، بسبب هذا الإسقاط المقصود، والذي لا يمكن قبوله؛ لتعارضه مع الحقائق التاريخية الثابتة، فغياب اسم مادبا من المصادر التاريخية لا يعني ذوبانها، غير أن ذلك يدل على أنها أصبحت تتبع لمدينة أخرى غدت أكثر شهرة منها «حسبان»، تلك التي كانت تتبع لمادبا أيام المؤابيين؛ فاشتتار اسم منطقة ما لا يعني اختفاء جاراتها، وإنما يعود ذلك لأسباب عديدة منها: ازدهار المنطقة الجديدة؛ لأسباب اقتصادية واجتماعية، أو تعرض غيرها من المناطق لكوارث طبيعية.

(1) العزيمي، مادبا، ص 171.

(2) النحاس، تاريخ مادبا، ص 17. وسابا، مادبا وضواحيها، ص 124-125.

(3) سابا، مادبا وضواحيها، ص 134. والنحاس، تاريخ مادبا، ص 17.

ومما يدعم ما ذهبنا إليه سابقاً تعرض مادبا خلال العقود السابقة لعدد من الكوارث الطبيعية خاصة الزلازل، وكان أولها زلزال عام 127هـ/746م، الذي ألحق بها أضراراً كبيرة، ثم تلاه زلزال ثانٍ عام 406هـ/1016م، وزلزال ثالث في عام 424هـ/1033م، دمرَ مبانيها جميعها⁽¹⁾، وقد توافقت ذلك كله مع ازدهار جارتها حسان، فأُتبعَت مادبا إليها، وأصبحت جزءاً من أراضيها حتى أواسط القرن التاسع عشر، ومن ثم عادت مادبا لمكانتها المرموقة مرة أخرى بالازدهار، وأصبحت حسان تابعة لها حتى فصلت في نهاية القرن العشرين، وعليه فإن ما جرى لمادبا لا يعني الموت، وإنما هو حركة من حركات التغيير والعمران البشري.

ويرتبط تاريخ مادبا في العصور الإسلامية بتاريخ البلقاء⁽²⁾ ارتباطاً وثيقاً لا سيما وأن جارتها حسان كانت عاصمة ولاية البلقاء التي سيتطرق إليها فيما بعد. ولزاماً القول هنا أنه لا يمكن فصل تاريخ أي منطقة عما حولها بسهولة، فهي كالعضو في الجسد. فالحديث عن تاريخ البلقاء يعني الحديث عن المناطق جميعها التي تتبع لها، ومن ضمنها حسان الأشهر.

وإن الحديث عن حسان في هذه الفترة يعني الحديث عن منطقة مادبا وما جاورها، فقرية ماسوح -مثلاً- (شرق حسان) كانت أهلة بالسكان خلال العصر العباسي⁽³⁾.

(1) سابا، مادبا وضواحيها، ص 135-136. والنحاس، تاريخ مادبا، ص 19. والذبيب، معجم أسماء المدن، ص 333.

(2) رغم الاختلاف في المصادر على حدود البلقاء، إلا أن مادبا في جميع الحالات تقع ضمن حدود البلقاء وحولها دون شك. انظر: ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت، ص 27-30. وخريسات، محمد عبد القادر، عمان في العهد الإسلامي، منشورات أمانة عمان، الأردن، 2004م، ص 11-12، وص 44-46. وسيشار له فيما بعد: خريسات، عمان. وانظر أيضاً: خريسات، محمد، البلقاء من الفتح الإسلامي، حتى نهاية القرن الثالث الهجري، (ص 49-86)، مجلة دراسات تاريخية، ع 21-22، دمشق، 1986م، ص 51-52.

(3) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، طهران، 1965م، مادة ماسوح. وسيشار له فيما بعد: الحموي، معجم البلدان.

وقد أشارت المصادر إلى وجود حركة ضد الحكم العباسي في عهد الخليفة المأمون (198-218هـ / 813-833م)، قام بها الأمير سعيد بن خالد بن محمد الفديني من آل عثمان بن عفان في منطقة الفدين (المفرق اليوم) شمال الأردن، فوجه إليه والي دمشق التابع للخلافة العباسية القائد محمد بن يحيى بن صالح، فهرب الأمير سعيد الفديني إلى زيزياء (شرق مادبا) ثم إلى ماسوح، وفيها عظمت حركته وزادت بعد أن انضم إليها عدد من أهالي المناطق المجاورة لها، ثم توجه إليه محمد بن يحيى الذي حاصره، فاضطر إلى الهرب منه متوجهاً إلى حسابان، وهناك حاصره مدة طويلة حتى تركه أعوانه وقبض عليه⁽¹⁾. ويستدل من حركة التنقلات والحصار التي قام بها سعيد الفديني بين مناطق زيزياء وماسوح وحسابان أن هذه المواقع القريبة من مادبا - خلال هذه الفترة - كانت مأهولة بالسكان.

وكذلك تظهر أهمية هذه المنطقة في الفترة الأيوبية والمملوكية خاصة في فترة تحرير البلاد العربية الإسلامية وتطهيرها من احتلال الفرنجة، وإعادتها إلى الحكم الإسلامي، فقد شهدت الأراضي الأردنية كغيرها من المدن الإسلامية العديد من الأحداث التاريخية، فقد أصبحت مسرحاً للمعارك مع الفرنجة، كمدينتي الكرك والشوبك وغيرها، وكان للمناطق المجاورة لمادبا أيضاً بعض المساهمات في ذلك، فقد مرّ السلطان نور الدين زنكي على رأس جيشه لمحاربة الصليبيين بجيشه من حسابان وماعين عام 565هـ / 1170م⁽²⁾، وكذلك قاد السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 580هـ / 1184م حملة عسكرية لمحاصرة الصليبيين في الكرك، وأثناء الحصار، اضطر للانسحاب؛ لورود الأخبار إليه عن وصول

(1) المصدر نفسه، مادة الفدين. وبدران، وانظر أيضاً: ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن، (ت 571هـ)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ط3، ج6، تحقيق عبد القادر بدران، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م، ص125.

(2) البنداري، أبو إبراهيم الفتح بن علي الأصفهاني (ت 643هـ)، سنا البرق الشامي وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م، ص9.

قوات صليبية من بيت المقدس لنجدة الصليبيين في الكرك، متجهة إلى منطقة وادي الواله -بالقرب من مادبا- ونظراً لصعوبة المسالك ووعورتها في المنطقة، انسحب صلاح الدين باتجاه الشمال، وعسكر بقواته في حسان، بعد أن ترك قسماً من الجيش في ماء عين (ماعين)، بالقرب من قوات الصليبيين، من أجل مراقبة تحركاتهم، إلا أن الصليبيين لم يتجهوا إلى حسان، بل توجهوا إلى الكرك، بعدها رحيل صلاح الدين من حسان متجهاً إلى عمان ثم الزرقاء فالأغوار ومنها إلى نابلس⁽¹⁾. وهذا يعني أن المنطقة كان لها دور في مرحلة تحرير البلاد من الغزاة.

وقد شهدت المنطقة أيضاً قيام بعض الأحداث السياسية على أراضيها، فقد وقع النزاع على السلطة بين الأيوبيين، فقد دارت على أرض حسان معركة بين الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق وبين الناصر داود في محاولة من الناصر داود؛ لمنع قوات الملك إسماعيل من التوجه إلى مصر، بعد أن طلب مساعدة الفرنج في ذلك، وقد دارت بين الطرفين معركة انتهت بانتصار الصالح إسماعيل وحلفائه على الناصر داود⁽²⁾.

وقد ازداد ازدهار حسان وجوارها في القرن السابع والثامن الهجريين/ الثالث والرابع عشر الميلاديين، حتى أصبحت قاعدة (عاصمة) البلقاء ومدينتها الكبرى، ويُذكر

(1) أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي (ت 665هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، مطبعة وادي النيل، القاهرة، 1870م، ص55. وغوانمة، عمان، ص99-100. وانظر أيضاً: الرواضية، المدي عبد، مدونة النصوص الجغرافية لمدن الأردن وقراه، اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، عمان، 2007م. وسيسار له فيما بعد: الرواضية، مدونة النصوص الجغرافية، ج2، ص505، 506. والأصبهاني، عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 597هـ)، البرق الشامي، تحقيق مصطفى الحيارى وفالح صالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987م، ص233-234. وابن شداد، محمد بن علي الحلبي (ت 648هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين الأيوبي، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة، 1899م، ص53-54.

(2) المقرئزي، أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1970م، ص318.

أنها كانت تشتمل على نيف وثلاثمئة قرية بأرض مستوية⁽¹⁾، وأصبحت حسابان أحد مراكز البريد الرئيسية في العهد المملوكي⁽²⁾، ومما يُظهر اهتمام المماليك بالمنطقة إنشاؤهم مدرسة في حسابان، وهذه المدرسة كان لها دورٌ مهمٌ في الحياة الفكرية ليس في المنطقة فقط، بل في بلاد الشام، ففيها كانت الولاية والقضاء⁽³⁾.

وقد قام الناصر محمد بن قلاوون بزيارة البلقاء صاحبه خمسون أميراً، وأقام بحسبان مركز الولاية؛ من أجل النظر في أحوال البلقاء وإدارة شئونها، وشئون عربانها البدو⁽⁴⁾، وعندما خرج الظاهر برقوق من سجنه في الكرك سنة 791هـ/ 1387م، كان لأهل الكرك والבלقاء دور كبير في إعادته للسلطنة مرة ثانية، وعندما وصل حسابان استقبله أهلها وأظهروا له الولاء والطاعة، وقام عرب بني مهدي (عرب البلقاء) باستقبال وضيافة الظاهر برقوق ومن معه⁽⁵⁾، وبعد انتهاء الزيارة أخذ الظاهر برقوق معه غلات من حسابان

(1) ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت873هـ)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، المطبعة الجمهورية، باريس، 1894م، ص46. والقلقشندي، أبو العباس أحمد (ت821هـ/ 1408م)، صبح الأعشى، ج4، المطبعة الأميرية، مصر، 1919، ص106. والرواضية، مدونة النصوص الجغرافية، ج1، ص403، والسوارية، نوفان، حسابان، المجلة الثقافية، عدد 31، (ص236-246)، الجامعة الأردنية، 2007م، ص239، وسيشار له فيما بعد: السوارية، حسابان. وعن علماء حسابان في العصر المملوكي انظر: السوارية، حسابان، ص240. والرواضية، مدونة النصوص الجغرافية، ج1، ص405-407.

(2) السوارية، حسابان، ص239.

(3) غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، دار الفكر، عمان، 1982م، ص49، وسيشار له فيما بعد: غوانمة، التاريخ الحضاري.

(4) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود (ت732هـ)، المختصر في أخبار البشر تاريخ أبي الفداء، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص85. وغوانمة، عمان، ص123. والتاريخ الحضاري، ص49.

(5) ابن قاضي شهبه، تقي الدين أبو بكر أحمد (ت851هـ)، تاريخ ابن شهبه، ج3، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، 1977م، ص293-295.

ومن أرض البلقاء؛ لأن تلكم المناطق كانت تشتهر بكثرة مناطقها الزراعية، وكثرة غلاتها⁽¹⁾.

وقد أكسب موقع مادبا الاستراتيجية والقريب من طريق الحج الشامي أهمية خاصة لدى المماليك، فقد كانت مادبا من أشهر المحطات في العصر المملوكي في منطقة البلقاء، وقريبة من المحطات الأخرى في حسبان، وذيبيان، وزيزياء⁽²⁾.

وعندما أخذت عمان تستعيد مجدها في بدايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بعد أن جُعلت مركزاً لولاية البلقاء، ونقل القضاء إليها، وقتها بدأت مكانة حسبان وجوارها بالتراجع⁽³⁾، وأصبحت في العهد العثماني خراباً بموجب الدفتر العتيق، ويزرعها أناس من خارجها⁽⁴⁾، فاستمر ذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

غير أنه من اللازم هنا الإشارة إلى أن الخراب الذي أصاب حسبان ومن ضمنها مادبا وغيرها من المواقع المحيطة بهما، لا ينفي عنها أنها كانت مأهولة بالسكان، ولكن ذلك جاء نتيجة هجرتهم - السكان - إلى المناطق المجاورة نحو الصحراء والبادية والمناطق الجبلية العديدة بالمنطقة، والعيش متنقلين من مكان إلى آخر، أو العيش بالكهوف والمغر التي تشتهر بها المنطقة، وكان ذلك نتيجة هروبهم من الحكم العثماني، وخير ما يدل على ذلك امتلاك بعض العشائر قرية بأكملها بالرغم من قلة عدد أفرادها، وقد سميت بأسمائها،

(1) ابن صصرى، محمد بن محمد، الدرّة المضيئة في الدولة الظاهرية، جامعة كاليفورنيا، كاليفورنيا، 1963م، ص 25، وانظر أيضاً: شوكت رمضان حجة، التاريخ السياسي لمنطقة شرقي الأردن من جنوب الشام في عصر دولة المماليك الثانية، إشراف يوسف حسن درويش غوانمة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1996م، ص 64.

(2) البخيت، محمد عدنان، مملكة الكرك في العهد المملوكي، عمان، 1976م، ص 66، 89.

(3) غوانمة، عمان، ص 162. والتاريخ الحضاري، ص 49.

(4) دفتر مفصل لواء عجلون، رقم (189) دراسة وتحقيق وترجمة محمد البخيت ونوفان السوارية، عمان، 2011، ص 149. والسوارية، حسبان، ص 241. والرواضية، مدونة النصوص الجغرافية، ج 1، ص 404.

وهي كثيرة، ومنها على سبيل الإبانة لا الإحاطة: جرينة الشوابكة، وكفير السيوف، وكفير الوخيان، وحوية البلاونة، ومريجة ابن حامد، ومريجة الشخانية، إضافة إلى أحواض الأراضي في العهد العثماني، والتي ما زالت بأسمائها في دائرة الأراضي والمساحة⁽¹⁾.

(1) راجع سجلات دائرة الأراضي والمساحة في مادبا.